جمهورية العراق
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة تكريت - كلية الآداب
قسم اللغة العربية
الدراسات العليا / ماجستير (ادب)

عنوان المحاضرة :

صورة المرأة في شعر الصعاليك

إعداد أ. د : نبراس خماس محمد

١٤٤٧هـ

٢٠٢٦ م

الصعلوك في اللغة: تعني الفقير الذي لا يملك مالاً، وجمعها صعاليك، قال ابن منظور في لسان العرب: "الصعلوك هو الفقير الذي لا مال له.

اصطلاحا: الصعاليك هم فئة من الشعراء العرب في العصر الجاهلي خرجوا على أعراف قبائلهم ومجتمعهم، وتميزوا بالفقر والتشرد والتمرد على النظام القبلي القائم. كانوا يعيشون على الغزو والسلب، لكن بعضهم اتخذ من ذلك وسيلة للدفاع عن المظلومين ومساعدة الضعفاء، لا لمجرد الطمع، وهم ثلاث مجموعات :

أولا: مجموعة من الخلعاء الشداد الذين خلعوهم قبائلهم لكثرة جرائرهم مثل حاجز الأزدى وقيس بن الحدّادية وأبى الطموحان القيمي.

ثانيا: مجموعة من أبناء الحبشيات السود ، ممن بدهم آباؤهم ولم يلحقوهم بهم لعار ولادتهم مثل :السليك بن السلكة وتأبط شرا والشنفرى ، وكانوا يشركون أمهاتهم في سوادهم قسموا هم وأضرابهم باسم أغربة العرب.

ثالثا: مجموعة لم تكن من الخلعاء ولا أبناء الإماء الحبشيات ، غير أنها احترفت الصعلكة احترافاً ، وحينئذ قد تكون أفراداً مثل عروة بن الورد العيسى ، وقد تكون قبيلة برمتها مثل قبيلتي هذيل وفتهم اللتين كانتا تنزلان بالقرب من مكة والطائف على التوالى فلسفتهم في الحياة والمجتمع والوجود تظهر في أشعارهم وسلوكهم ليست فلسفة مكتوبة تنظيرية بل هي تجربة معيشة عبّروا عنها بالشعر قائمة على الحرية والكرامة والتمرد والعدل الاجتماعي.

كان للمرأة حظ وافر ومغاير في فلسفتهم إذ كانت صورة المرأة في شعر الصعاليك لا تتّفق تماماً مع الصورة التقليدية التي غلبت في شعر القبائل التي تميل إلى التشبيب والتغزل الحسي أو الوصف الجسدي بل هناك بُعد إنساني وموقع متميز في الحياة للمرأة في فلسفة الصعلوك.

تعددت صور المرأة في شعر الصعاليك واتخذت أبعادا متنوعة وتحدد موقف الصعلوك حسب صلتها به وقربها منه فكانت زوجا وأما وحبيبة وبنتا. لقد بدت المرأة في شعر الصعاليك ندا لهم في كثير الأحيان، فرأوا فيها كائنا يستحق أن يشاركهم

همـومهم وطموحـاتهم ، ويقـف إلـى جـانبهم وقـت الضـيق والفـرج انهـا لا تشـكل ماضـيا بالنسـبة لهـم يرثونـه وينشـدون علـى انهـا اطلالـه بـل هـي امـرأة واقـع أنهـا الـزوج فـي أغلـب الأحيـان ذلـك الحاضـر الـذي يعملـون لأجلـه ، ويكـافحون فـي سـبيل المحافظـة عليـه، وتأمين الحياة الحرة الكريمة له.

من تلك الصور :(المرأة العاذلة، والعفيفة، والظاعنة، و العاملة، و المرأة الأم)

اولا: صورة المرأة العاذلة

هـي المـرأة التـي تلـوم وتعاتـب، وغالبـا تظهـر هـذه الصـورة فـي لـوم المـرأة لزوجهـا مـن خوفهـا عليـه نجـد ذلـك فـي شـعر الصـعاليك خـلال المحـاورات الزوجيـة إذ شـهدت زوجـة الصـعلوك تألقـا بـارزا بصـفتها قيمـة فنيـة وحياتيـة رفيعـة، وقـد تجـد هـذا التـألق الفنـي فـي حواره معهـا و هـذا الحـوار الـذي جـاء بـديلا عـن المقدمات الطلليـة فـي الشـعر الجـاهلي وقـد اتخـذ الحـديث مـع الـزوج فـي هـذه الأحاديـث الاسـتهلالية أشـكالا متعـددة تـرك الشـاعر لهـا المجـال للبـوح بمـا فـي داخلهـا مـن هـواجس ومخـاوف، وأحاسـيس ومشـاعر كاشـفا النقـاب عـن نفسـية المـرأة الميالـة إلـى الاسـتقرار منصـتا لصـوتها الـرافض لكـل فعـل يعرضـه للمخاطر والأهوال يقول عروة بن

الورد على لسان زوجته:

تَقولُ لَكَ الوَيلاتُ هَل أَنتَ تارِكٌ ضُبُوّاً بِرَجلٍ تارَةً وَبِمِنسَرِ

وهـو يحـاول أن يقنعهـا بصـحة تصـرفاته، فنزواتـه ومغامراتـه ليسـت الا فـي سـبيلها، مـن جهة، ومن أجل أن يحقق ذاته، ويكسب المجد الخالد يقول:

ذَريني وَنَفسي أُمَّ حَسّانَ إِنَّني بِها قَبلَ أَن لا أَملِكَ البَيعَ مُشتَري

أَحاديثَ تَبقى وَالفَتى غَيرُ خالِدٍ إِذا هُوَ أَمسى هامَةً فَوقَ صُيَّرِ

فـالمرأة ليسـت المحبوبـة التـي بتحـدث الشـاعر فـي حبهـا ، ويبكـي أيـام معهـا، ويقـف علـى أطـلال ديارهـا، ويـدعو أصـحابه إلـى الوقـوف معـه، ولكنهـا المـرأة المحبـة الحريصـة علـى

فارسها ، التي تدعوه دائما إلى المحافظة على حياته ، ان لم يكن من أجل نفسه فمن أجلها هي.

يقول عمرو بن براقة الهمداني

تَقولُ سُلَيمى لا تَعَرَّض لِتَلفَةٍ وَلَيلُكَ عَن لَيلِ الصَعاليكِ نائِمُ

وَكَيفَ يَنامُ اللَيلَ مَن جُلُّ مالِهِ حُسامٌ كَلَونِ المِلحِ أَبيَضُ صارِمُ

أَلَم تَعلَمي أَنَّ الصَعاليكَ نَومُهُم قَليلٌ إِذا نامَ الخَلِيُّ المُسالِمُ

تحاول سليمى العاذلة في هذه الأبيات أن تبدي حرصها على الشاعر، ويتجلى هذا الأمر بفعل صيغة النهي لا تعرض لتلفة. فهي – أي العاذلة تمثل الجانب المتعقل الناصح الذي يعي جيداً أن السلوك الخاطئ يؤدي حتماً إلى الهلاك.

ويسعى صوت العائلة أيضاً إلى قتل روح الإقدام عند الشاعر، وذلك من خلال المقارنة بينه وبين الصعاليك. فهو ليس صعلوكاً في رأيها، ولا ينتمي إلى عالم الصعاليك وليلك من ليل الصعاليك نائم.

مما يلفت النظر كان الصعلوك مرنا في علاقته بزوجته عندما تشتكي منه ، يخاطبها في لين ورفق . ويحاول أن يسوغ لنفسه سلوكا ، النهي ان أظهرت البخل ، وأمسكت يدها عن المعروف حيال الآخرين إذا أمرها بالبذل والعطاء، وان أبدت جفاء في معاملتها له ، وتأسفت على زواجها منه . وأنكرته، لفقره وبذله المال للمحتاجين، قابل تصرفها هذا بحكمة. وخاطبها برفق وخير من يمثل هذه الحال أبو خراش الهذلي في ميميته التي يقول مطلعها :

لَقَد عَلِمَت أُمُّ الأُدَيبِرِ أَنَّني أَقولُ لَها هَدّي وَلا تَذخَري لَحمي

فَإِنَّ غَداً إِن لا نَجِد بَعضَ زادِنا نُفِيء لَكِ زادا أَو نُعَدِّكِ بِالأَزمِ

وقد رسم في قصيدته هذه صورة دقيقة الجوانب الحياة الزوجية عبر من خلالها عن النفور وسوء العلاقة وعدم الانسجام بين الزوجين وبين فيها الملامح السلبية لصورة الزوج ورصد بعض مواقفها الخاطئة المتمثلة في اثارة المعضلات الأسرية وغيرها.

ثانيا: صورة المرأة العفيفة

في حين كانت صورة المرأة في الشعر الجاهلي القبلي منصبا على الحبيبة متسما بمظاهر الحسية فكان غزلهم بمفاتن المرأة إذ يصورون كل ما يشاهدونه لكن في شعر الصعاليك في كثير من الأحيان منصبا على الزوج، والتغزل بالزوجات غير مألوف ولا شائع في الأدب العربي، واذا كان الحديث عن الحبيبة في المجتمع القبلي بالحسي فان الغزل في شعر الصعاليك قد افتقر إلى مثل ذلك اللون من الحديث عن المرأة ، اذ طغى فيه الجانب الروحي الانساني العفيف على الجانب الحسي يقول الشنفرى:

لَقَد أَعجَبَتني لا سَقوطاً قِناعُها إِذا ما مَشَت وَلا بِذاتِ تَلَفُّتِ

تَبيتُ بُعَيدَ النَومِ تُهدي غَبوقَها لِجارَتِها إِذا الهَدِيَّةُ قَلَّتِ

تَحُلُّ بِمَنجاةٍ مِنَ اللَومِ بَيتَها إِذا ما بُيوتٌ بِالمَذَمَّةِ حُلَّتِ

مُصَعِلِكَةٌ لا يَقصُرُ السِترُ دونَها وَلا تُرتَجى لِلبَيتِ إِن لَم تُبَيَّتِ

صورة رائعة فريدة يوردها لهذه المرأة، فمن فرط حياءها وعفتها أثناء سيرها تبدو مثل شخص قد سقط منه شيء على الأرض ولا يدري أين هو، فهي لا ترفع رأسها ولا تلتفت يمنة ويسرة، وفوق ذلك كله فهي تنقطع أثناء كلامها ولا تسترسل في الحديث لعفة في نفسها وسمو في أخلاقها.

إن الشنفرى في هذه الأبيات لا ينظر إلى المرأة على أنها جسد ويلهب الغرائز، بل هي ذات إنسانية تسمو بقدر ما تمثله من قيم وأخلاق، وقد استحقت هذه الأبيات بحق أن يقول عنها الأصمعي: هذه الأبيات أحسن ما قيل في خفر النساء وعفتهن .

ثالثا: صورة المرأة الظاعنة

الظعن في اللغة: الرحيل من مكان إلى آخر.

فرحلة المرأة الظاعنة ترتبط، كما تبدو في القصيدة الجاهلية، بأسباب قهرية كالطلل والحرب وغيرها تحول بينها وبين الثبات في حدود المكان ومن ثم فإن صورة الظعينة تضحى نتاجاً حتمياً لفعل الزمن. وأما في الصعلكة، فإنه يخلو من هذه المقدمات الطللية، ومن صورة المرأة الراحلة هرباً من نذير الحرب، لأن المرأة في شعر الصعلكة معادل موضوعي نسقي للقبيلة.

ويضاف إلى ذلك أن الشاعر الصعلوك لا يرى في المرأة الظاعنة حبيبة أو زوجة يؤرقه عشقها . ويسعى جاهداً إلى الفناء بها أو البحث عنها ، ولذلك فقد خلت نصوص الصعلكة من فكرة الرحلة أو البحث عن الآخر. ومن هنا كان نص الصعلكة نصاً لا طقسيا لا قبلياً لا زمنياً، بل كان نصاً ثورياً مجسداً لوعي اجتماعي حاد، ولصراع طبقي حاد . مثل قول الشنفرى

أَلا أَمَّ عَمرو أَجمَعَت فَاِستَقَلَّتِ وَما وَدَّعَت جيرانَها إِذ تَوَلَّتِ

وَقَد سَبَقَتنا أُمُّ عَمرو بِأَمرِها وَكانَت بِأَعناقِ المَطِيِّ أَظَلَّتِ

بِعَينَيَّ ما أَمسَت فَباتَت فَأَصبحَتَ فَقَضَّت أُموراً فَاِستَقَلَّت فَوَلَّتِ

فَوا كَبِدا عَلى أُمَيمَةَ بَعدَما طَمِعتُ فَهَبها نِعمَةَ العَيشِ زَلَّتِ

في قراءة هذا النص يتضح له من الوهلة الأولى أن الشاعر يقدم صورتين مختلفتين لهذه المرأة الظاعنة، حيث يطالعنا في الأبيات الثلاثة الأولى بصورة المرأة المستبدة، ويبدو استبدادها واضحا في تفردها برأيها وترتيبها أمور رحلتها أمام مرأى من الصعلوك، دون أن تترك لهذا الأخير حق التعبير عن رأيه، فكأنها هنا قد قمعت رغبته في عدم رحيلها، بل ولم تبال أصلا بموقفه إزاء ذلك، وقمعت الصعلوك ثانية بأن جعلته خارج نطاق اهتماماتها ولم تتجشم عناء توديعه:

ألا أم عمرو أجمعت فاستقلت وما ودعت جيرانها إذ تولت

وفي هذا كله يريد الصعلوك أن يقول: إنه لم يكن يتوقع هذا الموقف السلبي من أم عمرو" التي كان يكن لها كل الاحترام والتقدير ويبدو ذلك واضحا من خلال تكراره لاسمها في بيتين متواليين: (ألا أم عمرو أجمعت) (وقد سبقتنا أم عمرو) فحسبنا أن نعرف إن من وظائف التكرار اللغوي – ولا سيما تكرار اسم العلم – بيان الأهمية وتوكيد المعنى وتقوية الإحساس به.

إلى جانب ذلك نحس بقوة شخصية أم عمرو" فهي حازمة في قراراتها، تقرر وتدعم ذلك بالأفعال، تعرف ما تريده بالضبط وتسعى إليه، ولا تثنيها عن ذلك لومة لائم.

فالشنفرى إنما يصور هذه المرأة بطريقة تدينها وتلقى عليها اللوم لاستبدادها برأيها:

بعيني ما أمست فباتت فأصبحت فقضت أمورا فاستقلت فولت

ومن خلال هذا البيت تظهر تلك السرعة التي تميز بها مشهد الرحيل الذي مر سريعا على ناظريه من خلال تعاقب الأحداث في زمن قصير قضت استقلت ولت .... دون أن يمنحه ذلك فرصة إثبات ذاته، أو محاولة ثنيها عن قرارها، وهو هنا كذلك يشير إلى ألمه من المشهد الذي صور أمام عينيه، فلو لم يحضر الموقف لكان ذلك أخف وطأة على نفسه.

ويبدو تأثر الشنفرى واضحا بقرار جارته الرحيل، وإن ظهر في أول الأبيات وهو يحاول أن يلقي عليها اللوم ويبين بأن رحيلها ليس بالأمر الذي سيعكر عليه صفو حياته، إلا أنه يعود في البيت

الرابع ليصدح بأنفاسه الحرى لفقدها:

فَوَا كَبِدا عَلى أُمَيمَةَ بَعدَما طَمِعتُ فَهَبها نِعمَةَ العَيشِ زَلَّتِ

رابعا: صورة المرأة العاملة المجتهدة

ويقصد بالمرأة العاملة في نص الصعلكة، تلك المرأة التي تشكل قيمة إيجابية في الحياة، من حيث إدراكها لواجباتها تجاه المجموع، ومن ثم حرصها على العمل في إطار الجماعة. وتبدو صورة المرأة العاملة، والحال هذه مختلفة عن صورتي المرأة التي مر بنا ذكرهما العادلة، والطاعنة. فالمرأة العاملة في رؤية الشاعر الصعلوك ذات مركزية فاعلة في تعاملها مع الواقع المعاين من خلال تركيزها على ثقافة العمل، من ذلك قول الشنفرى:

وَأُمَّ عِيالٍ قَد شَهِدتُ تَقوتُهُم إِذا أَطعَمَتهُم أَوتَحَت وَأَقَلَّتِ

تَخافُ عَلَينا العَيلَ إِن هِيَ أَكثَرَت وَنَحنُ جِياعٌ أَيَّ آلٍ تَأَلَّتِ

وَما إِن بِها ضِنٌّ بِما في وِعائِها وَلَكِنَّها مِن خيفَةِ الجوعِ أَبقَتِ

مُصَعِلِكَةٌ لا يَقصُرُ السِترُ دونَها وَلا تُرتَجى لِلبَيتِ إِن لَم تُبَيَّتِ

يُظهر الشاعر صورة المرأة الصابرة الكريمة، التي تتحمل الجوع وتُطعم أبناءها رغم الفاقة، دون أن تفقد عزتها أو كرامتها وهي رمز للشرف والصبر في أحلك الظروف.

ونرى الشنفرى يفصح بعد ذلك عن هوية المرأة العاملة، عندما يصفها بأنها مصعلكة». ولا نستغرب هذا لأن الميسم الذكوري الذي تحمله أم عيال يؤهلها لأن تمتلك مقومات القدرة على مواجهة أحداث الزمن وتقلباته.

خامسا: صورة المرأة الأم:

أن الأم كانت محل تفاخر بين الشعراء، وقد انتسبت عدة قبائل عربية إلى أمهاتها مثل خندف وجديلة ومزينة وعفراء وحبابة وكذا فإن العديد من رجالات العرب انتسبوا إلى أمهاتهم من أمثال المنذر ابن ماء السماء" و عمرو بن هند وذلك تعاظما وتفاخرا.

ولكن الأمر بالنسبة إلى الصعاليك يأخذ منحى آخر، فكانت نسبتهم إلى أمهاتهم تحمل معنى التحقير وتجهيل نسب الآباء كما هي الحال عند السليك بن السلكة وقيس بن الحدادية وغيرهما، وعلى الرغم من ذلك فقد كانت صلة الصعاليك بأمهاتهم أقوى من صلتهم بآبائهم وخاصة عند طائفة الأغربة منهم،

وذلك راجع كما هو معلوم إلى إنكار آبائهم لهم منذ طفولتهم، وهو ما يطلق عليه يوسف خليف العصبية النسائية في حياة أغربة العرب"، وهو يجعلها إحدى الأسباب الفعالة التي أدت إلى تصعلكهم. ومن الذين تبدو عندهم هذه العصبية الشنفرى" وذلك في مطلع لاميته المشهورة

أَقيموا بَني أُمّي صُدورَ مَطِيَّكُم فَإِنّي إِلى قَومٍ سِواكُم لأَمْيَلُ

فَقَد حُمَّت الحاجاتُ واللَيلُ مُقمِرٌ وَشُدَّت لِطِيّاتٍ مَطايا وَأَرْحلُ

النداء الذي تخيره الشنفرى لمخاطبة قومه – بني أمي – وما يثيره في النفس من معاني الود والشفقة والتراحم، إنه يؤذنهم بالرحيل ويخبرهم أن غفلتهم عنه توجب مفارقتهم. وهو بعد ذلك يخبر قومه أنه مائل إلى قوم غيرهم، ويدعوهم إلى التنبه من رقادهم فهذا وقت الحاجة ولا عذر لأحد، فإن الليل مقمر مضيء وإن المطايا حاضرة معدة للتحول والرحيل.

رغم قسوة حياتهم وشظف عيشهم، لم تخلُ أشعار الصعاليك من حضور المرأة، لكنها كانت تختلف عن صورة المرأة في شعر القبيلة لم تكن المرأة عندهم رمزًا للترف والنعيم، بل كانت رمزًا للحنين، والوفاء، والدفء الإنساني المفقود يظهر طيفها في شعرهم كتعويض نفسي عن الحرمان والوحدة، إذ يعيش الصعلوك مطاردًا من قومه، منبوذًا من المجتمع